اللغة وخطاب الهُوية
في المجموعة القصصية" أحلام تحت درجة الصفر لسليم بتقة"

الدكتورة: صفيـــة طبنـــي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تمهيد:

اللغة هي أساس التواصل، فهي وسيلة لنقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، واللغة لا تمثل مجموعة من العبارات الجامدة التي تعبر عن أحاسيس ومشاعر ونوازع كامنة، وأفكار وميولات، بل تقوم بمثابة الطابع القومي الذي يشد من أواصر العلاقات والألفة بين أفرادها، وكأنهم أسرة واحدة، ولأن الإنسان باحث في مكنونات الأشياء؛ فهو يحاول أن يربط كل ما يقابله من موجودات بتفسيرات شتى محاولا ومستفسرا عن كنهها، وينشأ ذلك عن طريق التفاعل بين الأفراد، وبالتالي يخلق كل فرد لنفسه مخزونا لغويا لا يفتأ يتسع، لينعكس ذلك على فكره وفهمه للحياة وتتشكل بذلك عوالم شخصيته، تلك التي تعبر عن ثقافته وهويته

ولهذه الأسباب يدعو الكثير من الدارسين إلى النظر للغة كإشكالية تبعث على التأمل والتعمق، لأنه" إذا نظرنا إلى إشكالية اللغة، يجب أن ننظر إليها ليس كمجرد وسيلة بريئة، أو كناقل للأفكار والمعاني والتجارب، وإنما كثقافة وحضارة وذاكرة اجتماعية، اللغة هي هوية الشعب والأمة، وهي الرافد الرئيسي لتطوره وتقدمه وعلومه وابتكاراته واختراعاته، واللغة هي القاسم المشترك الذي يجمع الأمة في التعبير عن أفراحها وأتراحها، والناقل الذي يلم الشعب ويوحده"[1]

من هنا وجب علينا التطرق للهوية وتعريفها والحديث عن أهم مقوماتها

تعريف الهوية:

جاء في القاموس: هوية(اسم) منسوب إلى هُو، هي البئر البعيدة القعر، وهوية الإنسان حقيقته المطلقة وصفاته الجوهرية، والهوية الوطنية معالمها وخصائصها المميزة وأصالتها، وبطاقة الهوية: البطاقة الشخصية تحمل اسم الشخص وتاريخ ميلاده وعمله وجنسيته[2]

إذا ترتبط الهوية من الناحية المفهومية بالشخص، أي:(هُو) فكل صفة جوهرية تعبر عن حقيقته ومكنوناته فهي هُويته، ولهذه الأخيرة أنواع منها:[3]

أ- الهوية الوطنية: والتي يتم التعريف بها من خلال البطاقة الشخصية، والتي تحوي مجموعة من المعلومات والبيانات التي يتميز فيها الفرد، بانتمائه إلى الوطن

ب- الهوية الثقافية: وهي تلك التي ترتبط بمفهوم الثقافة، والتي يتميز بها مجتمع ما، وهي التي تنقل اللغة؛ لأنها مرتبطة بها، فهي العامل الرئيسي في بناء الثقافات في المجتمع

ت- الهوية العُمرية: وهي التي تساهم في تصنيف الأفراد بحسب مرحلتهم العمرية، وتقسم إلى الطفولة والشباب، والرجولة والكهولة، وتستخدم عادة في الإشارة إلى الأشخاص في مواقف معينة، مثل تلقي العلاجات الطبية

والهوية ليست مرتبطة بشخص على وجه الخصوص، بل هي جماعية تدل على العموم كأن نقول: الهوية العربية والتي تشير إلى العرب، كبنية لها طابعها الذي يميزها وللهوية حالات هي: [4]

أ- تحقيق الهوية: هي ادراك الأفراد للهوية الفردية الخاصة بهم، والتي تهدف إلى تقدير الذات، واحترام الصفات الشخصية، وزيادة الإنتاجية العامة في المجتمع

ب- تعليق الهوية: هي معانات بعض الأفراد بأزمة في هويتهم الفردية؛ إذ يفقدون أي قدرة التعرف على الهوية الخاصة بسبب تعرضهم لاضطرابات نفسية

ت- انغلاق الهوية: هي حالة تصيب الأفراد عندما يتم فرض الأشياء عليهم، مثل نوع الملابس، أو التخصص الدراسي، أو موعد النوم، مما يؤدي إلى انعدام شعورهم بالهوية الخاصة بهم

ث- تفكك الهوية: وهي حالة تنتج عن ضعف في فهم الهوية، وتنتج عن تعرض الأفراد للاضطهاد والظلم الناتج عن سوء المعاملة، خصوصا في مرحلة الطفولة مما يؤدي إلى تفكك الهوية

إن ربط العلاقة بين اللغة والهوية، يستدعي التأكيد على تكامل العنصرين" فاللغة تمتاز بقدرة تلبية حاجيات المتكلمين، والهوية هي جزء لا يتجزأ من هؤلاء المتكلمين، ويتحكم في ذلك التنوع اللغوي داخل المجتمع

واستخلاص قضية الهوية واللغة من المجموعة القصصية" أحلام تحت درجة الصفر"، هي محاورة للألفاظ والتعابير المستعملة في هذه المجموعة من أجل استخلاص المسائل المتعلقة بالهوية؛ يرجع ذلك كله إلى الخلفيات الفكرية والثقافية للكاتب، ذلك أنه هو الوحيد الذي يلبس رموزه اللغوية دلالات متعددة، ويصور لنا أفكارا ومفاهيم مترابطة، لتعبر لنا في النهاية عن تجربة إنسانية يتقاسمها الكاتب مع المتلقي

لذا سوف نستخلص خصائص اللغة في المجموعة القصصية

أولا: الألفاظ والمفردات

تتميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات بثراء مفرداتها، وغزارة تعبيراتها، ولكل لفظة دلالة هي دلالتها المعجمية، إلا أن أغلب المفردات في اللغة تأخذ دلالتها من السياق الذي تكون فيه

وقد حوت المجموعة القصصية ألفاظا نابعة من المجتمع، تصور لنا حقبة زمنية ساد فيها الحديث وفق مرجعيات معينة، فالاستعمار الفرنسي لبلدنا الجزائر كان له الأثر الكبير، ن خلال ذلك الاستلاب الفكري والثقافي، واللغوي من أجل تحقيق أهداف وغايات سياسية واقتصادية

إن هذا الغزو يسلط جميع أسلحته للغة، ولا يكون ذلك مباشرة بل يكون عن طريق خطط مدروسة، لا تأتي دفعة واحدة، بل متزامنة مع الكثير من التغييرات التي تمس أصالة وعناصر التجذر في هوية الشعب

فإن بحثنا عن مرجعية الكاتب الفكرية، نجده يستقيها من المجتمع الذي يعيش فيه، المجتمع الذي حفظ لأفراده ذاكرة اجتماعية عامة، لكن متعة التلقي التي تتركها هذه الألفاظ

في نفسية المتلقي، هي ما توحي إليه، أو بالأحرى ما تعبر عنه من مواقف، وبالتالي تحاور الذات من خلال مخزونها لتقوم بإلقاء ظلالها على النص

لقد طغت على أغلب قصص المجموعة ألفاظ الفرح مزاوجة مع ألفاظ الحزن مثل: تبسم، لطف، زهرة أو كذا كلمات مثل: غضب يحتقن، صمت، هدوء، الصخب، الحركة... وغيرها من الكلمات التي توحي بتأجج العاطفة، وعدم استقرارها؛ وعدم الاستقرار راجع إلى القضايا التي تناقشها المجموعة القصصية، إنها قضية الوطن والوطنية في قصة(مونت كاسينو) و(الكولونيل بن داوود)، وقضية الاغتراب في قصة(حديث القنافذ)، وقضية معاناة النساء في قصة(أنفلونزا)، كل هذه القصص تبعث على التخييل القصصي، وهي تختزل لنا الوعي العام للمجتمعات وخاصة مجتمعنا الجزائري حيث السلطة للرجل، والمرأة في معاناتها سواء مع الرجل أو مع المجتمع إن أصبحت مطلقة أو أرملة

لقد استطاع الكاتب من خلال هذه المجموعات القصصية أن يذهب بذاكرة المتلقي إلى العديد من المحطات، التي أقلقت في يوم من الأيام هذا الشعب وجعلته يعيش المعاناة، من خلال مرجعية اجتماعية عملت على تقنية الانفتاح، وأحيانا الرؤيا بعين الباطن

ثانيا: الانزياح اللغوي

وهو تحميل مفردات اللغة دلالات أوسع من دلالاتها المعجمية، وهو تجديد لا تكاد تخلو منه أغلب الأعمال الأدبية، ويكون بكثرة في الأعمال التي تحمل دلالات عميقة وموحية، حيث يذهب بها الكاتب إلى أعمق المعاني من أجل الوصول إلى غايات عظمى، أو يهدف إلى التربية العامة

ونجد للانزياح مصطلحات أخرى منها(العدول)، وقد عده أبو عبيدة من أشكال المجاز في القرآن الكريم، يقول:" ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ومجاز ما جاء لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاء الجميع في لفظ الواحد... وكل هذا جائز قد تكلموا به"[5]

والانزياح اللغوي ينقسم إلى نوعين:

1- انزياح دلالي (استبدالي): وهو الأكثر استعمالا، لأنه الأكثر تأثيرا في المتلقي، وهو الصورة البلاغية، وتندرج ضمنه الاستعارة، المجاز والتشبيه

2- الانزياح التركيبي: وهو يتمثل في السلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية عندما تخرج على قواعد النظم والتركيب، مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات[6]

للانزياح دور أساسي في إعطاء العمل الأدبي قيمة جمالية تخرج به إلى الإبداع خاصة إذا أحسن الكاتب إذا أحسن الكاتب استعماله؛ لأنه يؤدي إلى خرق أفق التوقع عند المتلقي ويساعده على كسر الرتابة المملة في الانتظار

انطلقت لغة الكاتب سليم بتقة من التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية، وغالبا ما يجعلنا أمام تفاصيل مشوقة لأحداث تتصارع معها الأبطال والشخصيات، حيث يصبح المتلقي جزءا من المعاناة أو الفرح الذي يصوره الكاتب

يظهر الانزياح أيضا في تفاصيل الحياة التي يأتي انعطافها فجأة، وذلك عندما تنحرف عن المسار، فتصبح المعاناة أشد، يقول الكاتب:" شيئا فشيئا أحس أن ذاكرته تذوب في باريس الحبلى بالصخب والحركة"[7]

إن هذا التوظيف الذي ابتكره الكاتب، جاء غاية في الروعة والجمال، فكلمة (حبلى) التي وظفها الكاتب أوصلت المعنى على أكمل وجه، وقد عبرت عن المقصود أبلغ من قوله(المليئة) لأنه أصبح لدينا جملة منسجمة مع الابتداع الشعري

وهي صورة بلاغية(استعارة مكنية) قامت بالجمع بين ألفاظ لا علاقة للجمع بينها، لخلق هذا الانسجام والإبداع، فباريس هي حلم الكثيرين من يبحثون عن الرفاهية والعيش الرغد، فهي مدينة الجن والملائكة كما يطلقون عليها

يقول في موضع آخر:" سأعود لعائلتي، إلى الدفء الذي سيطفئ احتراقي"[8]

إنه كناية عن الحنين والشوق للعائلة، وإلى الدفء الذي كان يميزها، من خلال ذلك التلاحم، إذا هي معاناة المغترب المذلول، ولا مذلة أكثر من فقدان أواصر العلاقات العائلية، فهو ضياع يوضحه ذلك الاحتراق الذي يعبر عنه الكاتب، ويوضح ذلك بقوله:" أحداث باريس ونيس، وغيرها علمته أن يواجه المصائب بجلد وشجاعة، كلمات والده الذي قضى زهرة عمره بفرنسا مهاجرا لا تزال تأتيه ممزوجة برائحة البلد"[9]

إن الكاتب يعبر عن مكنوناته، يصور لنا الاغتراب والعيش بعيدا عن الوطن من أجل العمل، والبحث عن لقمة العيش، إنها وطنية الكاتب وقوميته التي تحكي أسرار الانبهار بالآخر، فلا دفء ولا حياة إلا في ربوع الوطن، فهوية الإنسان تكون بانتمائه لا

بانفصاله وابتعاده، إنه الخلق الأدبي، واستعمال الكاتب للانزياح ليس الهدف منه مخالفة الاستعمال الشائع للأساليب اللغوية من أجل التميز، لان المخالفة للنظام اللغوي لا تكفي لوحدها لتوليد الشاعرية والإبداعية بل يستلزم أن تردفها بعض القيم الفنية والجمالية، لأن الكاتب لا يطمح إلى التميز، إذ لا تميز ولا تفرد في الإبداع والخلق الذي يؤثر في النفوس من خلال الكشف عن فنية التعبير والإبداع

إن التعبير عن القضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية، وخرق سننها؛ هو الباعث على استعمال الكاتب للإنزياحات المختلفة، وذلك من أجل تلبية رغباته في الكتابة، وإشباع روحه بابتكار لغة جديدة عذبة تؤثر أكثر في المتلقي

والأمثلة أكثر من أن تحصى في المجموعة القصصية التي بين أيدينا، فمثلا العناوين؛ تمثل انزياحات مختلفة: فعنوان المجموعة: أحلام تحت درجة الصفر يمثل كناية، وحتى الأشياء تهرم وتشيخ يمثل استعارة، وأما حديث القنافذ فهي تعبر عن صدمة توقع المتلقي الذي ينتظر المعقول، ليجد نفسه مع اللامعقول في مواجهة الواقع، إنه ينتظر حديث الإنسان أو أي حديث ممن هم أهله ولكنه يصطدم بأن المضاف إليه غير متوقع وهو القنافذ

امتازت المجموعة القصصية بالكثير من الجماليات التي تدل على مقدرة الكاتب، وامتلاكه لآليات الكتابة، وهي توحي للقارئ بأنها حقيقية وواقعية تحكي أحداثا تاريخية حدثت في وقت الاستعمار الفرنسي، لأن الألفاظ التي استعملها الكاتب كلها مألوفة في ذاكرة الشعب، وهي الغربة والسلام، والحرب، والدمار وكذا الكولونال، فمن منا لا يعي مثل هذه الكلمات التي تقرع أذن السامع وتذكره بالمعاناة.

الهوامش:

1- محمد قيراط، اللغة والهوية، شبكة البيان يوم 4 ماي 2012 www.albayan.ae

2- معجم المعاني الجامع، www.almaa,ny.com

3- ينظر محمد جماعة، الهوية متعددة الأبعاد، المشهد التونسي ww.machhad.com تاريخ الإضافة 2016/11/3، لتصرف

4- مؤسسة لجان العمل الصحي، مفهوم الهوية، www.hwc-pal.org

5- أبو عبيدة مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 1381 هـــ، ص 18-19

6- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادؤه واجراءاته، دار الشروق، القاهرة،1998، ص 212

7- سليم بتقة، المجموعة القصصية أحلام تحت درجة الصفر، ص 29

8- نفسه، ص 15

9- المجموعة القصصية، ص 15